تصدير

شهدت العقود الأخيرة تزايداً ملحوظاً في عدد المعنيين بتاريخ الإمبراطورية العثمانية في الحقبة الممتدة من سنة 1300م حتى 1922م. وأذكر أنه في مطلع السبعينيات عندما كنت طالب دراسات عليا لم يكن هناك سوى قلة قليلة من الباحثين الذين درسوا وكتبوا عن هذه الإمبراطورية المدهشة التي ارتوت جذورها بالتراث الثقافي والسياسي البيزنطي والتركي والإسلامي؛ وأخيراً التراث الذي خلفه عصر النهضة في أوروبا. أما الآن فقد أصبحت دراسة التاريخ العثماني جزءاً لا يتجزأ ضمن مناهج العشرات من الجامعات والمعاهد الخاصة والعامة.بيد أني كنت، ولا أزال، أواجه مشكلة تتكرر في كل فصل دراسي، وتتلخص هذه المشكلة في طبيعة الكتب والمراجع التي تبحث في تاريخ الشرق الأوسط بما فيه التاريخ العثماني. فهناك كتب تعالج المادة بشكل مفصّل لا يتناسب مع احتياجات الطلبة - هذا من ناحية. ومن ناحية أخرى يوجد كتب تتناول المادة بإيجاز ولكنها لا تخلو من ضعف في المنهجية التاريخية التي تعتمدها والتي تميل إلى اعتبار الإمبراطورية

العثمانية كياناً عجز عن التجدد والتطور، و عمّه الفساد والتخلف وبات يتطلع إلى من ينقذه من مصير محتم.

لقد ألّفت هذا الكتاب متوخياً جعل التاريخ العثماني مفهوماً وممتعاً بحيث يستفيد منه الطالب الجامعي والقارئ العادي على حد سواء. وقد اعتمدت في مسعاي هذا على أبحاثي في هذا الميدان ، وبشكل أعم وأوسع على أبحاث أفراد آخرين بغية توعية القارئ إلى تلك الأبحاث الممتازة التي مازالت في أغلبيتها حتى اليوم بعيدة عن متناول القراء العاديين. يجد القارئ في نهاية كل فصل قائمة بالكتب والمراجع المفيدة (بيبلوغرافيا). وجميع هذه المصادر منشورة باللغة الإنكليزية التي تتصل بمادة البحث. ويمكن للقارئ أن يستفيد من هذه المراجع أو بعضها لزيادة إطلاعه. أما من يريد أن يحيط بالتاريخ العثماني بصورة شاملة فحسبه أن يلجأ إلى اللائحة السنوية التي يصدرها معهد الاستشراق في ڤيينّا[1] (النمسا)، وهي عبارة عن قائمة بمئات الكتب والمقالات المنشورة بعدة لغات، منها الإنكليزية واليابانية والعربية والفرنسية والتركية والروسية والإسبانية والألمانية والصينية وأخيراً الأرمنية. و هي من المصادر التي لا يستغنى عنها.

لقد حاولت في هذا العمل أن أتناول المادة بشمولية أكثر من المعتاد من حيث أني لم أكتف بالتاريخ السياسي فحسب بل تناولت أيضاً الجانب الاجتماعي والاقتصادي والتجاري. ويبدو

(1) Turcology Annual/Turcologischer Anzeiger, Vienna, Austria.

لي أن الدراسات السابقة كانت تركّز غالباً أكثر مما ينبغي على دور الدولة في التاريخ العثماني. والسبب في ذلك يرجع إلى حد ما، إلى اعتماد الباحثين على مراجع مستقاة من أرشيفات الدولة. فى حين أن الكتاب الحالي يهدف إلى تبيان دور «المجتمع المدني» بمختلف فئاته خارج إطار السلطة.

وبالرغم من أنني اجتهدت في التركيز على مختلف جوانب التجربة العثمانية بصورة متوازنة، فقد بقي هناك الكثير من الثغرات لأسباب تتعلق بحجم الكتاب من جهة وتقصيري الشخصي من جهة أخرى. فعلى سبيل المثال لم تنل الجوانب الثقافية الاهتمام الذي تستحقه. كما أن الكتاب لا يتطرق بشكل واف إلى بحث موضوع الرقيق أو إلى دور العلماء المسلمين ورجال الدين من يهود ومسيحيين.

تنبيه: لا بد من التأكيد على أن التجارب التي مرّت بها الدولة العثمانية غنية ومتنوعة وأحياناً فريدة من نوعها، ونستطيع أن نفهم هذه التجارب باستخدام نفس المنهج التحليلي الذي يتبعه المؤرخون في دراستهم للمجتمعات في كل من الصين (إبّان حكم المِنغ) واليابان وكذلك إمبراطورية الهابسبورغ وإنكلترا في العصر «الڤِكتوري». وفي اعتقادي أن المؤسسات السياسية والاجتماعية العثمانية كانت وليدة أحداث تاريخية معيّنة، كما هو الحال في بقية أرجاء العالم. لقد حاولت إبراز تلك الصفات التي تُميِّز التجربة العثمانية دون أن أغفل ذكر التحولات التي طرأت على المجتمع العثماني، شأنه في ذلك شأن الدول

والمجتمعات الأخرى. وعلى ذلك لا يمكن إلا أن نتوقع وجود أنماط مشتركة بين هذه الدول و المجتمعات من جهة والكيان العثماني من جهة أخرى.

نعالج في الفصل الأول التاريخ العثماني في سياق أوسع، أي من حيث الدور الذي لعبه العثمانيون في تطور أوروبا الغربية. ونعرض في الفصل الثاني و الثالث و الرابع للوقائع التاريخية منذ البداية حتى 1683، ومن ثم القرن الثامن عشر وأخيراً الحقبة الممتدة من 1800 حتى 1922. ونعرض في الفصول المتبقية لبعض القضايا الهامة التي تمس السياسة العثمانية على الصعيدين المحلي والدولي بالإضافة إلى الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية والعادات والتقاليد الشعبية والعلاقات بين رعايا «الإمبراطورية». أما الفصل الأخير فقد خصصناه لتقصي الآثار التي خلّفها الحكم العثماني على الشعوب التي تتوزع الآن على أكثر من ثلاثين دولة كانت جميعها فيما مضى تخضع للحكم العثماني.

في الختام أود أن أشير إلى الإرشاد الذي تقبلته بترحاب في معظم الحالات، من الكثير من الأصدقاء والزملاء ولكنني أتحمل بمفردي مسؤولية أية أخطاء أو تفسيرات مغلوطة. وأود أن أضيف إلى أن نظرتي إلى التاريخ قد تغيرت، و الفضل في ذلك يعود إلى عدد من الزملاء في جامعة بنغهامبتون Binghamton، وأخص بالذكر رفعت أبو الحاج وجون تشافي وبرندان مكونئيل وتيفاني پاترسن وجين كواتيرت. كما أوجه

شكري إلى إليف آكشت، ليندا كارول، إريك كراهان، قاسم كوبوز، توماس ياج، وأخيراً مرغريتا پوتوريدو، الذين راجعوا النسخات الأولية (المسودات) لهذا الكتاب. ولا بد لي في هذا الصدد من الإشادة بالعون الذي قدمه لي فاروق تبك الذي قرأ مسودتين مختلفتين تماماً للكتاب، وكانت ملاحظاته مفيدة جداً. وتجدر الإشارة في هذا السياق إلى الفائدة العلمية التي جنيتها من المؤتمرات التي تعقد كل سنتين في جامعة بنغهامبتون لدراسة التاريخ العثماني. بقي لي أن أشكر الأشخاص التالية أسماءهم لملاحظاتهم المفيدة حول نقاط معينة: ڤرجينيا أكسان، سلجوق إسينبل، كارتر فندلي، هيث لوري، نانسي ميكلرايت، شوكت پاموك، ليسلي پيرس، أرييل سالتنرمان، ظافر توپراك وأخيراً أندرياس تيتزه.

obeikandl.com

جدول النسب للسلاطين العثمانيين

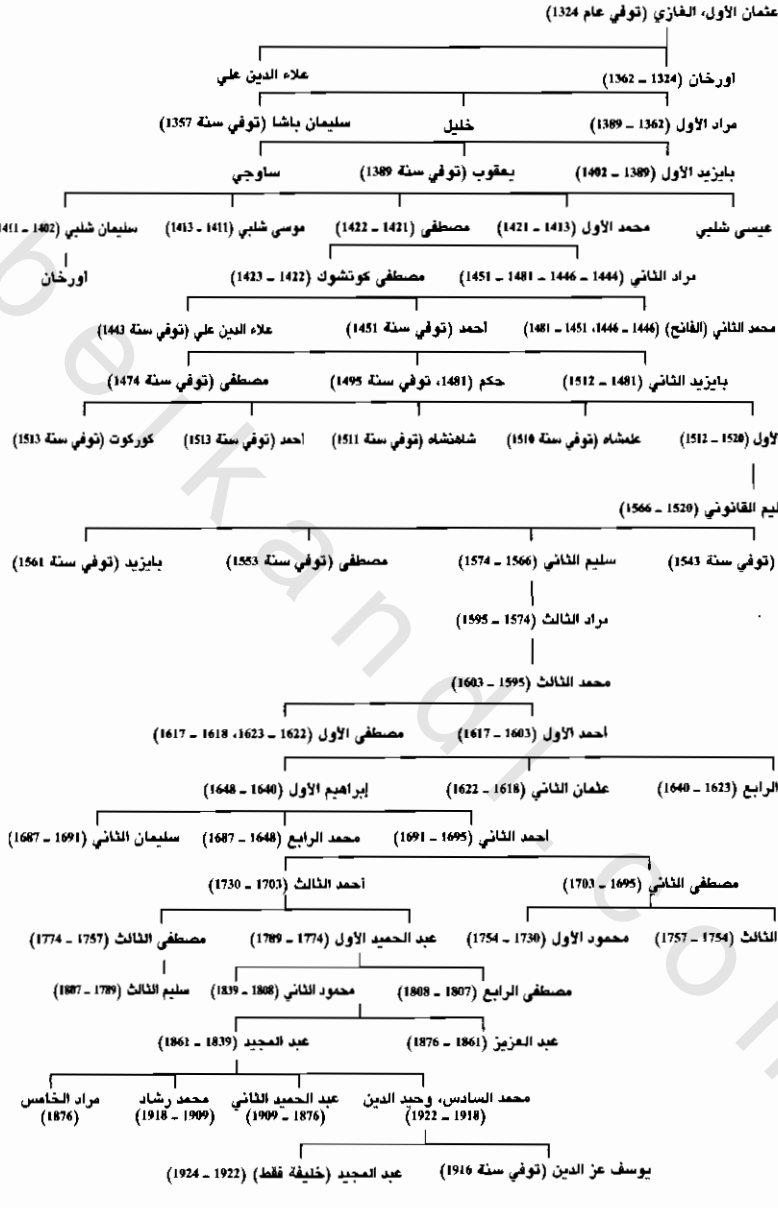

المصدر: خليل إنشلجيك ودونالد كواتارت ـ التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للإمبراطورية العثمانية، 1300 ـ 1914 (كامبردج، 1994)، المجلد 27

obeikandl.com